الإسراء والمعراج

حقيقتهما ومغزاهما

بقلم: الأستاذ محمد حلمي محمد الشافعي

اسم الكتاب: الإسراء والمعراج
الطبعة الأولى: عام ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م

‘Al- Israa Wa Al- Meraaj’
(Arabic)

First Published in U.K. in 1999

Published by:Al Shirkatul Islamiyyah
Islamabad,
Sheephatch Lane, Tilford
Surrey GU10 2AQ (U.K)

Printed at:
Raqeem Press
Islamaabd, U.K.

ISBN: 1 85372 661 3

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

يتحدث العلماء كثيرًا عن الإسراء والمعراج، ولكن بما لا يسمن ولا يغني من جوع القراء الذين يتعطشون إلى معرفة ماهيتهما ومغزاهما، وما أدل على ذلك ما نُشر في صفحات جريدة "الأهرام" المصرية بقلم الدكتورة الشهيرة بنت الشاطئ، نضعه بين يديك، أيها القارئ الكريم، ونضع أيضا ما بينته جماعتنا من حقائق ومعارف عن الإسراء والمعراج - والحكم بيدك. مع الإشارة أن صاحب المقال قد أعدّه مقتبسا من تفسير إمامنا الفقيد سيدنا مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه.. الخليفة الثاني لسيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإســـراء والمعـــراج

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ إِلى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء:٢)

تتحدث هذه الآية الكريمة - بإجماع الآراء - عن موضوع الإسراء المحمدي العظيم. ولكن مسألة الإسراء في حد ذاتها تعتبر إحدى المعضلات التي اختلف المفسرون القدامى والمحدِثون حولها، وذلك لكثرة الأحاديث والروايات وتضارب الآراء حولها. ولقد جرت عادة غالب المسلمين أن يجمعوا بين واقعة إسراء الرسول وواقعة عروجه ﷺ فيحتفلون بذكراهما في وقت واحد باسم "ذكرى الإسراء والمعراج".. اعتمادا على بعض روايات جمعت بينهما. والحقيقة تحتاج إلى تدبر حتى تنكشف للعقول.

حادثان منفصلان

إن موضوع العروج مذكور في القرآن الكريم في موضع آخر غير هذه السورة، ومستقل عن الإسراء تماما، وذلك في سورة النجم حيث يقول عز وجل:

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى

إِلَى عَبْدِهِ مَآ أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (النجم:٥-١٩)

تشير هذه الآيات إلى عروج المصطفى ﷺ ويُستخلص منها ما يلي:

(١) إن النبي ﷺ كان قاب قوسين أو أدنى،

(٢) أوحى الله له هناك،

(٣) رؤية الرسول ﷺ لله ﷻ وآياته الكبرى،

(٤) وصوله ﷺ إلى سدرة المنتهى،

(٥) رؤية الجنة عندها،

(٦) غطى السدرة شيء ما.

فإذا تأملنا الأحاديث المتعلقة بالمعراج نجدها تتحدث عن كل هذه الأمور.. فمثلا:

(١) في رواية عن أبي سعيد الخدري قال النبي ﷺ "فكان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى".

(٢) وفي رواية عن أبي هريرة "أنه لما بلغ عند سدرة المنتهى فكلمه الله تعالى عند ذلك". وعن أنس بن مالك: "ثم إني رُفعتُ إلى سدرة المنتهى فقال الله لي: يا محمد.." (الخصائص الكبرى).

(٣) عن أسماء بنت أبي بكر أن النبي ﷺ لما ذكر سدرة المنتهى قلت: ماذا رأيت هنالك يا رسول الله؟ قال: "رأيت هنالك ما رأيت".

وذكرَت كان يعني الله ﷻ. (خصائص ابن مردويه).

وعن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ أنه ﷺ رأى ربه بفؤاده مرتين.

أما رؤيته ﷺ للآيات الربانية في المعراج فلا خلاف فيه، فلا داعي لذكره.

(٤) في حديث أبي هريرة السابق قال "ثم انتهى إلى السدرة"، ولا سبيل لإنكاره، إذ رواه عنه ستة من الحفاظ هم: ابن جرير، ابن أبي حاتم، ابن مردويه، البزار، أبو يعلى، البيهقي، ابن عساكر. عن أبي سعيد الخدري الذي يذكر فيه وصوله ﷺ إلى سدرة المنتهى بعد رفعه إلى السماء والتقائه بالأنبياء. وعن مالك بن صعصعة في مسند ابن حنبل والبخاري ومسلم وابن جرير في حديث المعراج "ثم رُفعتُ إلى سدرة المنتهى".

(٥) في حديث أبي سعيد الخدري، "ثم إني رفعت إلى الجنة" (ابن جرير).

(٦) في حديث أبي هريرة عن المعراج "فغشيها نور الخلاق ﷻ" (خصائص ابن مردويه).

وعن أنس: "فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت؛ فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها." (صحيح مسلم).

من كل ذلك يتضح على الوجه القطعي أن آيات سورة النجم نزلت في أحداث المعراج وحده وليس لها دخل بالإسراء أو غيره من الأحداث. كما أن آية الإسراء لم تتناول شيئا مما وقع في المعراج، بمعنى أن سورة

الإسراء تحدثت عن موضوع الإسراء وحده، وسورة النجم تناولت موضوع العروج وحده.

زمن نزول سورة النجم

متى نزلت سورة النجم؟ التحقيق يدل على أنها نزلت حوالي السنة الخامسة من البعثة المحمدية الشريفة، أو قبلها بقليل. يتفق كل المؤرخين على أن النبي ﷺ أمر بعض أصحابه في هذه السنة بالهجرة إلى بلاد الحبشة بعد أن اشتد إيذاء كفار مكة لهم، حيث يجدون الأمان عند ملك لا يُظلم عنده أحد. فهاجروا إليه في شهر رجب من السنة الخامسة، وكان فيهم سيدنا عثمان وزوجته رقية بنت المصطفى ﷺ (الزرقاني). وفشل وفد قريش المكون من عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعه في تحريض النجاشي ملك الحبشة على طردهم.

وفي مقابلة مع جماعة من كفار قريش قرأ الرسول ﷺ سورة النجم، ولما وصل إلى موضع السجدة عند قوله تعالى:

﴿أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا﴾ (النجم:٦٠-٦٣)

سجد النبي ﷺ وسجد معه الجميع بما فيهم من حضر من كفار قريش.. ذلك من جلال الموقف ورهبة الآيات. فشاع أن زعماء قريش قد أسلموا، وذلك مكرا وخديعة لاستدراج المهاجرين للعودة من الحبشة. فلما عاد هؤلاء وجدوا أن الخبر كاذب. وقد علل كفار مكة سجودَهم مع

الرسول ﷺ بفرية باطلة.. إذ زعموا أنه تلا بعد قوله:

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ (النجم:٢٠-٢١)

كلاما يمدح فيه آلهتهم. وقد وقع للأسف الشديد في هذا الفخ السخيف بعض المؤرخين فزعموا أن الشيطان - معاذ الله- ألقى على لسان المصطفى ﷺ عبارات عن الأصنام تقول: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لتُرْتَجَى. وهو قول فاضح الكذب؛ ولا مجال لدحضه هنا.

وإذن من هذه الواقعة الشهيرة الواردة في أكثر كتب التاريخ والحديث.. يتضح أن سورة النجم التي تتناول موضوع (المعراج) قد قرأها الرسول في السنة الخامسة. أي أنها نزلت عندئذ أو قبلها بقليل.. أي قبل شوال من السنة الخامسة التي عاد فيها مهاجرو الحبشة.

وجدير بالذكر أن بعض الأحاديث تبين أن عروج الرسول ﷺ حدث أكثر من مرة. ففرضية الصلاة الواردة في بعض أحاديث المعراج قد حدثت في الفترة الأولى من البعثة المحمدية الشريفة.. أي في أوائل السنة الثانية أو منتصفها، كما أن آية النجم ﴿ولقد رآه نزلةً أخري﴾ تشير إلى أن المصطفى ﷺ رأى ربه عز وجل أكثر من مرة.

زمن الإسراء

نعود بعد ذلك إلى واقعة الإسراء. يقول المؤرخون أنها وقعت في أواخر الفترة المكية على أقوال منها: إنها حدثت في السنة الثانية عشرة بعد البعثة (المستشرق وليم) أو ربيع من السنة الحادية عشرة (الزرقاني) أو في

ربيع قبل الهجرة بسنة (ابن مردوية عن ابن عمر، والبيهقي وابن سعد عن أم سلمة) و(الخصائص الكبرى).

كما أن هناك شهادة السيدة عاتكة بنت أبي طالب أن الرسول ﷺ كان يبيت عندها ليلة الإسراء وأنها أول من رَوَى له المصطفى ﷺ رؤياه. وقد رَوَى عدد من الصحابة ما يؤيد ذلك.

لقد ذهب الرسول عند السيدة عاتكة بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته أم المؤمنين السيدة خديجة.. وكل ذلك كان بعد السنة العاشرة من البعثة. أي أن الإسراء كان في السنة الحادية أو الثانية عشرة.

فاصل زمني بين الإسراء والمعراج

إذن هياك فاصل زمني بين المعراج والإسراء لا يقل عن خمس سنوات، وقد يصل إلى سبع سنوات. وأن المعراج هو الذي وقع أولاً وفيه فرضية الصلاة، ورؤية الله تعالى، والوصول إلى سدرة المنتهى والجنة. وأنه ذكر في سورة النجم التي لم يرد فيها أي ذكر للإسراء. أما الإسراء فقد وقع قُبيل الهجرة، وقد ورد في سورة الإسراء التي لم يرد فيها أي ذكر للمعراج. فهل يُعقل أن يجتمعا في رحلة واحدة؟ ولو كان بينهما ارتباط.. فهل يجوز ذِكر أحدهما في سورة دون إشارة تبين الرابطة بينهما؟

ثم نظرةٌ إلى حديث أم هانئ الذي رواه مُحَّمد ابن إسحاق، والذي جاء في سيرة ابن هشام، وقد رواه عنها سبعة من المحدِّثين بطريق عدد من الأسانيد المختلفة التي كلها تدور حول رحلة الإسراء، ويتبين أنه لم يرد فيه

أي ذكر للمعراج. وإذا كانت السيدة أم هانئ هي أول من سمع الخبر من الرسول ﷺ.. فهل يمكن أن يحكي لها الرسول ﷺ جزءا من رحلته ويغفل أو يخفي عنها الجزء الأكبر والأهم؟ قالت: ما أُسريَ برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي - نائم عندي تلك الليلة، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا. فلما كان قُبيل الفجر أهَبَّنا رسول الله ﷺ. فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: "يا أم هانئ: لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيتِ بهذا الوادي، ثم جئتُ بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت الغداء معكم الآن كما ترين. ثم قام ليخرج، فأخذت بطرف ردائه فتكشف عن بطنه -كأنه قبطية مطوية- فقلت له: يا نبي الله، لا تحدث بهذا الناسَ فيكذبوك ويؤذوك. قال: (والله لأحدثنهم)... إلخ الحديث. وهنا لم يرد أي ذكر على لسان المصطفى ﷺ ولا على لسان أم هانيء عن وقائع المعراج. أليس هذا دليلا على أن العروج كان في مناسبة أخرى؟! وهل من المعقول أن ينسَى الرسول ﷺ أو تنسَى أم هانئ هذه الواقعة العظيمة؟ اللهم لا.. وإنما شتان ما بين الواقعتين.

وعندما سمع أهل مكة حكاية الإسراء من الرسول ﷺ، ماذا حدث؟ تقول السيدة عائشة: لما عرف الناس خبر إسراء النبي ﷺ ذهبوا إلى أبي بكر فقالوا: هل لك يا أبا بكر في صاحبك يزعم أنه قد جاء هذه الليلة إلى بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة؟ فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه؟ فقالوا: بلى! هاهو ذلك في المسجد يحدث به الناس. فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق. فما يعجبكم من ذلك؟ فو الله إنه

ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدّقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه! (سيرة ابن هشام)

أليس في هذا الحديث ما يدل على أن العروج إلى السماء لم يرد في تلك المناسبة على لسان الرسول ﷺ وأن القوم لم يتحدثوا عنه وهو الأعجب والأبعد حسب قول أبي بكر الصديق، وهو الأدعى إلى التكذيب والسخرية من جانب الكفار!

واستدلال أبي بكر كان عن الخبر يأتي من السماء. فإذن موضوع العروج النبوي إلى السماء لم يكن واردا عندئذ.. وإلا لكان استدلال أبي بكر غير مناسب للمقام.

أما وقد تبين بجلاء أن الإسراء شيء والمعراج شيء آخر ولم يجتمعا في رحلة واحدة بل ولا في سنة واحدة، وإنما يفصلهما عدد من السنوات يبلغ ستا أو سبعا.. فقد يتساءل البعض: لماذا إذن جمع بينهما بعض الرواة؟ مع أن القرآن الكريم لم يجمعهما في سورة واحدة ولو بمجرد الإشارة أو التلميح؟

سبب خلط الحادثين

الجواب على ذلك: لقد اختلط الأمر على بعض الرواة والمفسرين القدامى فأدخلوا روايات أحَدِهما مع الآخر وظنوا أنهما مرحلتان من رحلة واحدة للأسباب الآتية:

(١) وقعت حادثتا العروج والإسراء في الليل، ولما كان الإسراء يطلق

على السير في الليل استعمل بعض الصحابة والرواة والمحدثين كلمة الإسراء للرحلتين، وصار الناس لا يفرقون بين هذا وذاك بما جعل الرواة يخلطون بينهما، وظنوا أن النبي ﷺ عرج به إلى السماء من بيت المقدس في نفس الليلة.. ولنتأمل الرواية التالية مثالا لذلك:

روى ابن حنبل في مسنده عن مالك بن صعصعة أن النبي ﷺ حدثهم عن ليلة (أسريَ به) قال: بينما أنا في الحطيم – وربما قال في الحجر– مضطجعا إذ أتاني آتٍ فجعل يقول لصاحبه: الأوسط بين الثلاثة.. فأتاني فشق ما بين هذه وهذه– يعني من نحره إلى أسفل بطنه – فاستخرج قلبي. فأُتِيتُ بطستٍ من ذهب مملؤة إيمانا وحكمة، فغسل قلبي ثم حُشيَ ثم أعيد. ثم أُتيتُ بدابة دون البغل وفوق الحمار يقع خطوه عند أقصى طرفه، فحُملتُ عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى بي السماء الدنيا.. الحديث

ترى الراوي يذكر عبارة (أسريَ بي) مع أنه لا يتحدث عن رحلة الإسراء المعروفة إلى بيت المقدس، وإنما يحكي رحلة العروج السماوي. ولقد بدأت هذه الرحلة حسب هذه الرواية من مكة وليس من بيت المقدس، ومن جوار الحرم وليس من بيت السيدة أم هانئ.

وروى البخاري وابن جرير أن النبي ﷺ عرج ليلة الإسراء إلى السماء الدنيا. وبذلك يثبت جليا أنهم يذكرون كلمة الإسراء في الرحلتين. وهذا ما جعل بعض الرواة يسهون ويجمعون بين الرحلتين وأحداثهما.

(ب) اعتقد بعض الرواة أن الرحلتين شيء واحد بسبب وجوه

المشابهة بين بعض الأحداث فيهما، ومنها.. سفر الليل، ركوب البراق، لقاء الأنبياء، أداء الصلاة، رؤية الجنة والنار، صحبة جبريل.. فهي كلها أمور مشتركة بين الرحلتين، ساعدت على وقوع بعض الرواة في خلط أجزاء عن العروج مع أجزاء من رواية عن الإسراء، ولم يستطيعوا الاحتفاظ بأصول أحاديث كل منهما على حدة.

ولو أننا تصفحنا الروايات التي تجمع بين الأمرين وتقول بعروج النبي ﷺ من بيت المقدس بعد إسرائه ولقائه الأنبياء وصلاته معهم.. ظهر لنا أنها اختلطت في بعضها واضطربت اضطرابا شديدا، فمثلا يقول الرواة أن المصطفى ﷺ لقي الأنبياء ومنهم آدم وموسى وعيسى، وصلى بهم في بيت المقدس، وبعد فترة وجيزة صعد إلى السماء ولقيهم، ولكنه لم يتعرف عليهم وأخذ يسأل جبريل: من هذا؟ فيجيبه جبريل. وهذا أمر لا يسيغه الوجدان ولا يتقبله العقل. فكيف يغيب عن ذهنه وينسى وجوه أشخاص من أمثال هؤلاء الأنبياء العظام، قابلهم وصلى بهم منذ فترة قصيرة؟ وهذا، وإن كان دليلا واضحا على خلط الرواة بين الأحداث المتشابهة فهو أيضا دليل على الفارق الزمني بين المعراج والإسراء. إن المصطفى ﷺ رأى الأنبياء أولا في عروجه ولم يكن يعرف حليتهم فسأل عنهم، لكن لم يرد سؤاله عنهم عند لقائه بهم في رحلة الإسراء..

وخلاصة القول إن ما سقناه من شهادات وأدلة نقلية وعقلية من داخل الروايات وخارجها لفيه الكفاية للدلالة على أن العروج رحلة بعيدة في زمنها عن رحلة الإسراء. وكل منها مستقل وقائم بذاته.

تفاصيل عن المعراج

والآن نتناول موضوع المعراج بشيء من التفصيل..

إن واقعة المعراج لم تكن انتقالا جسديا من الأرض إلى ما وراء عالم الأفلاك والمجرات -إن كان له في تصورنا وراء- ولم تكن انتقالا روحيا بمعنى أن الروح الشريفة غادرت الجسد وانتقلت إلى هذا المجال.. لأن الأرواح لا تفارق أجسادها مادام المرء على قيد الحياة.. ولم تكن حلما يمر برأس نائم يغط في فراشه. وإنما هي من قبيل الوحي الإلهي الذي يكلم به المولى تبارك وتعالى من يصطفيه من عباده.. إنه الكشف. والكشف أو الرؤيا.. تحدث للإنسان المصطفى وهو في حالة اليقظة الكاملة... يرى الشيء ويعي أحداث الكشف.. وحده في خلوة بعيدا عن الناس، أو أمام الناس ولا يدرون بما يجري معه، أو أمام الناس ومعهم ويشتركون معه.

أنـــواع الكشـــف

الكشف.. أو الرؤيا.. أو الوحي.. كلها أسماء لنفس التجربة، إنها درجات تختلف كثافة ولطفا حسب درجة الموحَى إليه. وهي بالنسبة للرسول ﷺ أعلى درجات الكشف بحيث لا يدانيه فيها مخلوق آخر من الأنبياء وغير الأنبياء. وتجدر الإشارة هنا إلى ما ورد في بعض الروايات: تنام عينه ولا ينام قلبه (البخاري وأبو داود)

ومن الكشوف التي اشترك فيها الحاضرون مع الرسول ﷺ ما رَوته كتب الحديث عن الغريب الذي أتى الرسول ﷺ وهو بين جمع من

صحابته، وجلس إليه يسأله عن الإسلام والإيمان ويصدقه بعد كل إجابة، وعجب الصحابة من أمره، يسأله ويصدقه. فلما انصرف أخبرهم المصطفى ﷺ إنه جبريل أتى ليعلمهم أمر دينهم.

ومن الكشوف التي وقعت للرسول ﷺ في حضور صحابته ولكنهم لم يشاهدوها معه، ما حدث يوم غزوة الخندق، عندما حاول بعض الصحابة من جند المسلمين كسر صخرة تعترض طريق الخندق، وقد حضر الرسول ﷺ يشجعهم، وتطايرت الشرارات من المعول، وكَبَّرَ الرسول ﷺ وكبر معه صحبه الكرام. وبعد أن زالت الصخرة أخبرهم المصطفى ﷺ أنه مع لمعان الشرر أضاءت له قصور ملوك اليمن وكسرى وقيصر.

ومن الكشوف التي وقعت للرسول ﷺ في خلوته بينه وبين ربه عز وعلا.. رؤيا المعراج ورؤيا الإسراء ورؤيا دخول المسجد الحرام ورؤيا مصارع رؤوس الكفر يوم بدر.

فكل هذه الرؤى من أنواع الوحي الإلهي.. أو الكلام الرباني.. الذي يختلف في شكله عن وحي القرآن.. لأن الأخير له صورة لفظية محددة.. تَوَلى تبارك وتعالى حفظها، أما الوحي الكشفي فهو يتسم بقدر من الرمزية، يزيد أو ينقص حسب حالة صاحب الكشف، ويحتاج إلى تأويل وتفسير وفهم بقدر ما فيه من مجاز.

فرؤيا الرجل الغريب الذي جاء ليسأل الرسول ﷺ وحي تعليمي، ويتضمن قدرا من الرمزية تفيد أن المصطفى ﷺ إنما يتلقى العلم الروحاني من الله تعالى وأنه صادق فيما يقول، حافظ ذاكر لكل ما نزل عليه. هذا

بالإضافة إلى ما تحمله من معاني التعليم والتأييد والتصديق. وقد تمت هذه في حضور الناس.

ورؤيا يوم الخندق كان تحمل أنباء غيبية عظمى، شاهدها الرسول ﷺ وأخبر بها الحاضرين.. في وقت عصيب.. تحدى فيه النبي ﷺ كل الأخطار المتوقعة، وقدم البشرَى لجنود الإسلام.. ينفخ في أرواحهم قبسا من أنوار الطمأنينة والثقة واليقين بمستقبل الإسلام المشرق، في ظروف تدعوا إلى الخوف بل إلى اليأس. ولقد تحققت رؤياه ﷺ أصدق ما يكون التحقق.. وأضاءت أنوار الإسلام كل تلك البقاع التي رأى شرر المعول يضيئها. وهكذا تحول الرمز إلى حقيقة، وكان تأويل الرؤيا واضحا عندما سمعوها من فمه الشريف، وكان واقعها صادقا مع ما سمعوه منه، وشهدها الكثيرون منهم بعد سنوات قلائل. وهناك العديد من الرؤى أو الكشوف، التي هي بحق من أعظم المعجزات التي جرت على يديه ﷺ.. تُثبت أمام العالم صدقه في نبوته ورسالته وعلاقته برب هذا الكون الذي يدبر أموره ويدير أحداثه.. سبحانه وتعالى. وواقعة الإسراء من هذا القبيل، تحمل من أخبار الغيب –الذي استأثر الله بعلمه– ما كان مقدرا له أن يتحقق، ويعلن أمام العالم كله.. يشهدونه بأعينهم وحواسهم، ويعيشونه حقيقة وواقعا، أن مُحَّد ﷺ قد جاء من الله عز وجل، وتحدث باسم الله عز وجل، وصدق فيما قال عن الله عز وجل. وبذلك يزداد الذين آمنوا إيمانا، ويعذر الذين تعاموا أو عموا عن الحق.

المعجـــزة

وينبغي أن نشير هنا إلى أن لفظة (المعجزة) ليست مصطلحا قرآنيا أو نبويا، وإنما هي من وضع رجال العلم، وقد عرّفوها بأنها: (العمل الخارق للعادة الذي يجريه الله على يد مدعي النبوة ليكون دليلا أمام قومه على صدقه في دعواه).

وهذا يقتضي أن يتم هذا العمل أمام قومه، يشهدونه وهو يقع، ويلمسون نتائجه بأنفسهم. وإلا فهو ليس بأمر معجز. فإذا ادعى شخص أن أمرًا حدث له وهو في خلوته –وكان ما يدعيه بعيدا عن المألوف وعما جرت به العادات كان ذلك مدعاة لتكذيبه، وللمكذبين عذرهم في ذلك.

وأود أن أبين من الآن، أن تكذيب واقعة وردت في القرآن الكريم أو في الحديث الشريف لأمر ما، يوقع المكذب في غيابه الجهل وظلمات الكفر. أما تكذيب أحداث الواقعة استبعادا لحدوثها بسبب غرابتها أو صعوبتها فربما كان ذلك أشد جهالة وأعظم كفرا.. لأن المولى تبارك وتعالى إذا أراد شيئا فلا راد لما أراد..

فلنترك هذا الافتراض ولا شأن لنا الآن بمن يكذب الرسول ﷺ أو يستبعد على الله – عَزَّ وَجَلَّ – أمرا أراده. ولكن جدير بنا أن نضع في أذهاننا أن أعمال الله – جل وعلا– كلها هي من المعجزات.. بدءًا من جناح البعوضة إلى أعظم المجرات. فماذا بالله عليكم في هذا الكون ما هو ليس بمعجز لكل الكائنات؟ هل هناك شيء في هذا الكون هو أبدع من خلق الله؟ إن من يرى في ما يسمونه "خوارق" شيئا أكبر من شيء آخر فهو لا

يعرف لله قدره. إن كل صغيرة أو كبيرة في هذا الكون معجزة كاملة بالنسبة لكافة المخلوقات.. وعجْزُ الناس عن خلق خلية أو ذرة واحدة هو مساوٍ بنفس القدر عَجْزَهم عن خلق بحر أو جبل أو قمر.

ولا بأس من أن نكرر مرة أخرى أن الآية الإلهية أو ما يسمونه "معجزة" لا يكون لها أي مغزى أو قيمة إذا كان شاهدها من جرت على يديه وحده، ذلك لأن المكذبين له سيمعنون في تكذيبه، والمصدقون له قد يفتن بعضهم ويقع في التكذيب، أما الموقنون به فهم يصدقونه من قبلها ومن بعدها ولا معنى لها بالنسبة لهم إذ أنهم لم يشاهدوها بأنفسهم لتترك أثرا ما.

كما أن المعجزة – أو ما يعتبرها البعض معجزة – إذا لم تكن عاملا بنَّاء في بيان صدق المدعي فإنها تكون عملا لا يتسم بالحكمة، لأنها عندئذ تعتبر عقبة في سبيل المدعي وفتنة شديدة لقومه. إنها لا تكون دليلا واضحا بل عاملا مربكا محيرا.

ومما يشار إليه هنا ما يزعمه بعض رجال الدين من أن هناك أمورا خارقة للعادة تشبه المعجزات، يسمونها (استدراجا)، لأنها تقع على يد الكاذب ليتمادى في كذبه.

الحق إن مثل هذا القول افتراء على الله الرحمن الرحيم، الذي يعامل الناس بالرأفة ولا يريد بهم التضليل والكيد. كما أن مثل هذا الاستدراج يوقع الأبرياء في خطأ لا حيلة لهم في اجتنابه.

يقول كثير من العلماء بأن القرآن الكريم هو معجزة رسول الإسلام

ﷺ الكبرى، وهذا قول صحيح لأن القرآن - وإن كان بلسان العرب- إلا أنهم لم يستطيعوا ولم يقدروا.. وإلى اليوم عاجزون.. أن يأتوا بمثله في نظمه وأسلوبه وجماله البياني. ولكن الأهم من ذلك، لهم ولغيرهم، أن العالمين جميعا لا يستطيعون أن يأتوا بما في سورة واحدة من سوره -طويلة أو قصيرة- من تشريع كامل أو حكمة بالغة أو تعليم رشيد أو مثل دقيق أو عقيدة طاهرة أو تعريف بصاحب الملك والملكوت أو نبأ غيبي لا يتخلف.. أو.. أو.. مما نعلمه اليوم، وما يتكشف لنا في الغد، من كنوز القرآن التي لا تفنَى، وخزائنه التي لا تبلى.

هذه هي المعجزة الحقة.. تغيب الشمس وتشرق، ولكن شمس القرآن باقية تملأ الدنيا هداية وسعادة، لمن أراد الهداية، ولمن طلب السعادة.

إن حادثة الإسراء أو المعراج لو كانت بالجسد ما أضفت على مغزى الإسراء أو معنى المعراج مزيدا من الإعجاز.. ذلك لأن تحقق ما أشارت إليه أحداث المعراج، وتأويل ما ورد في واقعة الإسراء، تطَّلبَ عَمَلَ آلاف مؤلفة من جند الله. إن روايات الحادثتين تحكي لنا أن جبريل وملكا أو اثنين هم الذين اشتركوا في واقعة شق الصدر ورحلة السماء ورحلة الأرض، ولكن الأحاديث تحكي لنا أن سبعين ألف ملك نزلوا مع سورة الكهف وعلى رأسهم ملك الوحي، يحرسون السورة حتى يتحقق ما أشارت إليه من أنباء الغيب. بل إن آلاف من الملائكة نزلوا في معركة بدر الكبرى، ووعد الله المؤمنين بتأييد خمسة آلاف من الملائكة بعد معركة أحد. وفي هذا ما يكشف لنا عن أحداث تطلبت مددا سماويا أعظم بكثير مما تطلبته حادثة

الإسراء أو حادثة المعراج.

وإذن فالمسألة ليست مسألة صعوبة أو غرابة أو إمكان حدوث، فحياة الرسول ﷺ زاخرة كل يوم بأحداث جسام، لا يمكن لإنسان أن يحققها وحده، ما لم تكن جنود العالم العلوي في ركابه. فمعركة الإصرار على كون الرحلتين بالجسد، أو إنكار الرحلة كليةً، باطلة بين طرفين لم يدركا حقيقة المعراج وحقيقة الإسراء، ومن ثم راحا يضربان بعضهما بالأدلة والبراهين التي قامت على مقدمات بعيدة تماما عن واقع الأمر وحقيقة الأحداث.

إننا نقول لمن ينكر هذه الواقعات: إنها ليست أحداثا جسدية مادية فلا تتسرع بالإنكار، ولكنها إشارات روحانية تحمل إعجازا أعظم بكثير مما تنكره من حركات المادة. ونقول لمن يلمح على أنها رحلات بدنية: رويدك فإنك لا تضفي على مُحَمَّد المصطفى ﷺ كرامة ولا سموا، لأن ما تتوهمه ليس في الواقع شيئا يذكر بجانب ما استحقه ﷺ من كرامة ومنزلة، وليس من شأن هذه الحركات الجسدية أن ترفع منازل المصطفين الأخيار، وإنما هي شيء كبير في عين أصحاب النظرة السطحية والهمم الضعيفة.

وقفة بالأحداث

ولنتجول معا في بعض هذه الأحداث، ونتأمل ما فيها من تكريم حسب فهم أصحاب النظرية الجسدية. وإنا لا نعيب على هؤلاء إلا أنهم لفرط محبتهم للرسول ﷺ يريدون أن يخلعوا عليه من فهمهم ما يجعله على

المستوى التي ترسمه لهم مخيلتهم.. متناسين أنه بشر.. وإن كان أكرم البشر، ومتغافلين عن وظيفة الرسالة التي يحملها بكونه رسول، وإن كان أعظم الرسل ﷺ.

ولنبدأ بحادثة شق الصدر.. إذا كانت هذه حادثة جسدية مادية حقا، فما يكون فضل الرسول ﷺ على سائر البشر في مقاومة الشيطان.. واكتساب الحكمة والعلم؟ لقد أزالت الملائكة حظ الشيطان منه وغسلوا باطنه، وملأوا قلبه حكمة وعلما دون كسب أو جهد من جانبه، فهل هذا يُكسبه فضلا على أتباعه الذين جاهدوا حق الجهاد لاكتساب التقوى؟

عفوا يا رسول الله.. فإنك أطهر وأنقى وأحكم مَن ولدته أُم بحسن عملك وجميل اتباعك لهدى ربك. بذلت من دمك وجسمك وروحك وملكاتك ما استحققت به أعظم شهادة حصل عليها أحد من خَلق الله تعالى، فكان قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ شهادة يحفظها لك القرآن المجيد وسُنتك الطاهرة وسيرتك العبقة، وترويها الأجيال جيلا بعد آخر. إن حكمتك وعلمك وطهرك لا يكفيها طست أو بحر، ولكنها جهاد عمرك لحظة بلحظة ويوما بيوم وحركة بحركة، صلى الله عليك حق الصلاة.

ويقول المفسرون المحدثون.. إن الرسول ﷺ بعد أن ماتت زوجته السيدة خديجة عليها السلام ثم عمه أبو طالب، وبعد اشتداد قريش له، وبعد رحلته إلى الطائف التي لقي فيها منهم أسوأ استقبال وأسوأ رد.. أراد الله تعالى أن يُطيب خاطره ويجبر كسره، فأخذه إلى رحلة في الملكوت

الأعلى بصحبة جبريل، حيث اجتاز السموات السبع ولقيَ بعدها ربه.

أين الترفيــه؟

إنه لقول طيب، يترك في نفس المسلم أثرا رائعا، ويتضمن في ذات الوقت حقيقة واقعة.. ولكنها غير ما أراده المفسرون بقولهم. فإن الرحلة الجسدية ترضي الإنسان العادي، الذي يجد متعته في تغيير المكان، ومشاهدة أماكن جديدة، ورؤية مناظر الطبيعة التي تريح بصره، وترفِّه عن مَلَلِه وتعبه، كما يذهب أحدنا إلى المصيف أو المشتى. ولو كان المصطفى ﷺ من هذا الصنف من الناس –وحاشا له أن يكون منهم– فما أحسبه رأى في هذه الرحلة لو كانت رحلة جسدية – أي نوع من الترفيه. فقد شاهد مناظر تقشعر لها الأبدان، من عصاة أمته الذين تُقرض ألسنتهم بالمقاريض، ومن يأكلون اللحم النيئ الخبيث، ومن يأكلون الضريع والزقوم الخ.. فأيُّ ترفيه في هذا؟

وإذا كانت الرحلة للتكريم، فمن رأى؟ جبريل؟ إنه يلقاه كل يوم. الأنبياء السابقين؟ إنهم هم الذين يُكرَمون برؤيته. رب العزة تبارك وتعالى؟ وهل هناك مكان أو موقع للقاء لله ورؤيته أيها الناس؟ إننا لا يليق بنا أن نقول إن مُحَمَّدا ﷺ يلقى الله تعالى، بل إنه معه في كل حين.. متى غاب عنه حتى يراه؟ فأين التكريم وهو ينهل منه في لحظات حياته المباركة بلا حساب.

يقولون كانت الرحلة لترضيته! وهل لا بد من مغادرة الأرض لبضع ساعات أو لحظات ليرضي الله مُحَّدا ﷺ؟ هل نسيتم أيها الناس علاقة مُحَّد بربه؟ هل تذكرون دعائه: (إذا لم يكن بك غضب علي فلا أبالي). إن مُحَّدا ﷺ لا يأبه لكل مصاعب الدنيا وإهانات الغوغاء وجهل الجاهلين، ما علم أن الله تعالى راض عنه. ولقد علم ذلك في التو واللحظة. ألا تذكرون ملك الجبال عندما جاءه يبلغه التحية من الله جل وعلا، ويعرض عليه تدمير قرية الشرك.. قرية الطائف؟ هل تذكرون جوابه.. ورحمته ورجاءه في أن يؤمن قومه؟ هل تنبهتم إلى معدن هذه النفس الطاهرة؟ هل ترضيها رحلة ليلية يرى أثناءها بعض المشاهد الرمزية؟

والحقيقة أن الرحلة السماوية كانت فعلا للتكريم والترفيه والترضية، لا لمحمد ﷺ وحده وإنما لأمته.. لمن معه ولمن بعده. لقد كانت آية سماوية له يشهد صدقها بنفسه، ويشهد صدقها صحابته ومتبعوه عبر الدهور. كانت معجزة رائعة، لا لأنها حركة بدنية لجسد واحد من البشر بين الأجرام الهائلة العدد تعبر أغوار الكون المحكم العظيم.. بل لأنها جاءت حقا وصدقا وواقعا ملموسا في محلها وتفصيلها، وسيتضح لنا ذلك عندما نتناول أحداث المعراج.

نعود إلى موضوع الكشوف والرؤى.. التي هي وحي الله في هيئة صور ومرائي، وهى على ثلاثة أنواع:

الأول: ترى الأشياء والأمور مثلما تكون في العالم المادي بغير تبديل.

الثاني: تكون بعض المشاهد بحاجة إلى تأويل وتعبير.

الثالث: تكون كل المشاهد بحاجة إلى تأويل وتعبير.

ضرورة تأويل الأحداث

وسترى من تدبر ما ورد في أحاديث العروج والإسراء أن الحادثتين كانتا من قُبيل الكشف، لأن الكثير من تفاصيلهما تستلزم التأويل حتما. رُويَ عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: فُرِج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطستٍ من ذهب ممتلئ حكمةً وإيمانا، فأفرغهما في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء. (مسلم)

ورُويَ أيضا عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمهُ ثم أعاده إلى مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعنى ظئره- فقالوا: إن مُحَّمدا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون - قال أنس: وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره. (مسلم)

لندع جانبا الخلاف الثانوي بين الروايتين، ولنتدبر النقطة الجوهرية، أعني واقعة شق الصدر والطست. وهنا نتساءل: ما هي تلكم العلقة، وما علاقتها بحظ الشيطان؟

إن الشيطان كما نعلم ونفهم من القرآن يأمر بالفحشاء ويسعى لتضليل الناس ويزين لهم العداوة والبغضاء وما إلى ذلك من الشرور. وكل

هذه الأمور ليست بالأشياء المادية التي تشغل جانبا من قلب الإنسان العضوي، وليست مما يُزال بالغسيل من ماء زمزم. وهكذا نقول عن الحكمة والإيمان الذين كانا في طست من ذهب وأُفرغا في قلبه ﷺ.

ولا مناص من الإقرار بأن هذه الواقعة كانت كشفا يرمز إلى معنى سام، إذ يصور لنا مدى ما توفر للرسول ﷺ من حفاظة محكمة من أية مؤثرات أو نوازع سيئة بفضل ما أُوتيَ من حكمة سماوية وإيمان ثابت قويم.

ومما يسترعى الانتباه أن الروايتين السابقتين لشخص واحد؛ هو أنس بن مالك رضي الله عنه، وأن شق قلب الرسول ﷺ في إحدى الروايتين حدث وهو صغير يلعب، وفي الرواية الأخرى وهو ببيته في مكة، مما جعل بعض العلماء مثل الحافظ الذهبي يرى أن هذا الأمر حدث مرتين.

وقد رُويَ عن أنس بن مالك أيضا أن رسول الله ﷺ قال: (أُتيتُ، فانطلقوا بي إلى زمزم، فشرح عن صدري، ثم غسل بماء زمزم، ثم أُنزلت) (مسلم). وهنا لا ذكر للطست الذهبي؛ كما أن الغسل تم عند بئر زمزم.

كذلك تعرضت الروايات العديدة لكيفية الانتقال. فقيل إن جبريل أتى بالبراق إلى الرسول ﷺ، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، حافره عند منتهى طرفة (البخاري ومسلم). وفي روايات أخرى اكتفى بأنه دابة أبيض.

ورُويَ عن رسول الله ﷺ أن جبريل أخذ بيده فعرج به إلى السماء الدنيا (البخاري ومسلم)؛ وهنا يبدو أنه مضى دون حاجة إلى دابة يركبها.

وكذلك اختلفت الروايات في وصف جبريل.. فعن ابن الزبير عن

رسول الله ﷺ قال: إنه رأى جبريل يشبه دُحْية أو ابن رمح دحية بن خليفة (مسلم).

ورُويَ أن ذر بن حبيش سئل عن قول الله تعالى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ فذكر أن ابن مسعود قال: إن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح، وفي رواية أخرى: رآه في صورته له ستمائة جناح (البخاري ومسلم).

ورُويَ عن عائشة عليها السلام أنها سُئلت عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ.. الآية﴾ فقالت: إنما ذلك جبريل. كان يأتيه في صورة الرجال، وأنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد أفق السماء. (مسلم)

وجدير بنا ألا نفهم من اختلاف الروايات أنها باطلة يمكن طرحها جانبا، أو إنكار كل ما جاء فيها عن المعراج أو الإسراء. فهذا تسرع في الحكم دون تبصر، فإن من الممكن التوفيق بين بعض هذه الاختلافات، كما أن رواتها جماعة من المشهود لهم بالعلم والخلق، والمعروفين بالحرص الشديد على الاستقصاء والتدقيق. وغاية ما يمكن قوله عن تلكم الأحاديث التي وردت في المراجع الرئيسية بصفة عامة أن الذاكرة قد تخون راويًا من سلسلة الرواة فينسَى جزءا من تفاصيلها، أو يقدم أو يؤخر ترتيب بعض جزئياتها، فيحدث في الرواية نوع من القلب، أو قد يخطئ الناسخ في النقل.. وهذا أمر نجده في الكتب المطبوعة في عصرنا هذا على الرغم من توافر أسباب الضبط والتصحيح والمراجعة. ولا ننسى أن هذه الروايات كانت تُرْوَى ويتناقلونه في أغلب الحالات بالمعنى لا بالنص.

ولنلق نظرة أخرى على ما رُويَ عن المطية التي ركبها الرسول ﷺ في سفره الروحاني.

فبالإضافة إلى ما رويناه من الروايات عن البخاري ومسلم والحافظ الذهبي فقد رُويَ في تفسير الدر المنثور: (أُتيتُ ليلة أُسْرِيَ بي بدابةٍ فوق الحمار ودون البغل، خَطْوُها عند منتهَى طرفها، كانت تسخَّر للأنبياء قبلي).

وأخرج البيهقي عن أبي سعيد الخدري أن أصحاب الرسول ﷺ قالوا له: يا رسول الله، أخبِرْنَا عن ليلة أُسرِيَ بك.. وقال فيه.. (فإذا أنا بدابة يقال له البراق وكانت الأنبياء تركبه قبلي. يضع حافره مد بصره، فركبته).

ورَوَى البيهقي أيضا في حديث طويل قال فيه... ثم أُتيتُ بالمعراج الذي تعرج عليه الأرواح، فلم تر الخلائق أحسن من المعراج (تاريخ ابن عساكر).

فحمل واقعة ركوب البراق على المعنى الظاهر يعني أن الأنبياء أيضا عرج بهم بالجسد العنصري، وكانت الدابة تحمل المؤمنين الصالحين بأرواحهم!! وهذا نوع من الخلط يبعث على التساؤل ويثير الاعتراضات.

وأخرج ابن حنبل وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل وأيضا المختار بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "ليلة أُسرِيَ برسول الله ﷺ دخل الجنة، فسمع في جانبها حسا، فقال لجبريل: ما هذا؟ فقال: هذا بلال المؤذن. فقال النبي ﷺ حين جاء إلى الناس: قد أفلح بلال، رأيت كذا." (الدر المنثور).

هذا وقد روَى البخاري ومسلم وغيرهما حديثا مشابها يتضمن وجود بلال ﷺ في الجنة وإن لم يرد فيه ذكر المعراج.. فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: يا بلال، حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام.. فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة. قال: ما عملت عملا أرجى عندي أني لم أتطهر طهورا في ساعة ليل أو نهار إلا صليت ما كتب لي أن أصلي. [دف نعليك، رواية البخاري، خشف نعليك، رواية مسلم، والمعنى تحرك مشيك وصوته].

فلو سلمنا جدلا بأن المعراج كان بالجسد العنصري، فكيف ذهب بلال المؤذن إلى الجنة مع إنه كان نائما في مكة؟ وهل هو أيضا عُرج به إلى السماء ليلة معراج الرسول ﷺ؟

الواقع إن تصور حدوث الإسراء أو المعراج بكيفية مادية يتعارض تماما مع ما تضمنته الروايات العديدة من وقائع وصِفات تنطق من نفسها بأن الحادثتين كانتا كشفا روحيا.

وقد أورد ابن كثير في تفسيره نقلا عن ابن جرير ما يلي:

"لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق، فكأنها حركت ذنبها فقال، لها جبريل: مه يا براق، فو الله ما ركبك مثله. وسار رسول الله ﷺ، فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: سِرْ يا مُحَمَّد. فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعوه متنحيا عن الطريق، فقال: هلم يا مُحَمَّد، فقال له جبريل: لا تلتفت إليه. فسار ما شاء الله أن يسير، قال: فلقيه خلق من خلق الله فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام

عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: أردد السلام يا مُحَّد، فرد السلام.... حتى انتهى إلى بيت المقدس، فعُرض عليه الخمر والماء واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصبتَ الفطرةَ، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت وغويت أمتك..

ثم قال جبريل: أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقيَ من عمر تلك العجوز، وأما الذي أراد أن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام".

وفي رواية أخرى قيل إن ما قُدم للرسول ﷺ كان خمرا ولبنا وعسلا، وقيل كذلك أنهما اللبن والعسل، وفي روايات أخرى: خُيِّر النبي ﷺ بين اللبن والخمر. وبعض هذه الروايات قدم فيها ذكر الخمر على العسل (راجع البخاري وابن حنبل وابن كثير ودلائل النبوة للبيهقي)، ولكن الثابت في هذه الروايات المختلفة أن النبي ﷺ اختار اللبن.

ويبدو أن الحديث الأول - الذي ذكر الأشربة الثلاثة، وبترتيبها الوارد فيه الماء فالخمر فاللبن- هو الأولى بالاعتبار، ذلك لأن هذه الرواية تتضمن ثلاثة أشربة تقابل ثلاثة أمور رآها الرسول ﷺ في طريقه إلى بيت المقدس؛ فالمرأة العجوز أوّلها جبريل بالدنيا وقرب نهايتها، وكذلك الماء يُعبر عن الدنيا إذ أن حياة كل شيء حي فيها يتوقف على الماء وتؤدي ندرته إلى القحط والهلاك، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾

(الأنبياء ٣١)

وذلك الذي نادى الرسول ﷺ أوّلَهُ جبريل بأنه إبليس. وكذلك عبر جبريل عن امتناع الرسول ﷺ عن شرب الخمر بأنه نجى نفسه وأمته من الغواية.. فإبليس والخمر مشتركان في الغواية، وقد قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ (المائدة ٩١)

أما اللبن فهو شراب فطري طاهر، وغذاء رئيسي للإنسان يشربه الطفل مدفوعا إليه بفطرته النقية التي برأه الله عليها؛ لونه البياض مَثَل للصلاح والفلاح... وقد عبر جبريل عن شربه بأنه إصابة للفطرة، ويناسب ذلك لقاء الرسول ﷺ للأنبياء وسلامهم عليه ورده عليهم. وفي ذلك إشارة إلى أن أمته ﷺ سوف تُصان من الهلاك، ولا يقطع عنها غذاء العلوم الإلهية الروحانية الطاهرة.

وللرد على من يعرض أن جبريل بدأ تعبيره بالحديث عن اللبن وقد ذُكر آخرا.. نقول بأن تأويل اللبن يحمل خبرا سارا فبدأ به ليبشر الرسول ﷺ ويطمئنه على أمته قبل أن يذكر له تأويل الخمر والماء..

ومن الشواهد الدالة على أن رحلة الإسراء لم تكن بالجسد العنصري تلك المشاهد التي احتاجت إلى التعبير.. والتي قَبِلَ بها الرسول ﷺ دون اعتراض.. فلم يقل لجبريل مثلا: كيف تفسر لي العجوز بأنها الدنيا مع أني أراها بعيني رأسي امرأةً عجوزًا.. لقد اقتنع ﷺ بتفسير جبريل لأنه يعلم بأن ما يراه ليس من قُبيل الرؤية الحسية بالعينين، وإنما أمر روحي من عالم

الكشف.

ولو قلنا غير ذلك.. لكان التعبير - لا سمح الله- لغوا لا معنى له، فلم نسمع ولم نقرأ في كتب الله مثلا أن الدنيا امرأة عجوز، وليس من المعقول أن من يشرب الماء يغرق أو يُقضى عليه بالغرق. لقد كان رسول الله ﷺ بعد ذلك يشرب الماء ولم يحرمه على أتباعه، ولم يغرق ﷺ ولم يغرق أتباعه. وهل اللبن هو القطرة والهداية؟ الكفار يشربون اللبن ربما أكثر من المؤمنين، ومع ذلك لم يهتدوا. ولا أعتقد أن أحدًا يختلف معنا في أن هذه المشاهد كلها كانت من قُبيل الكشف الروحي ولم تكن واقعا ماديا. ومن ثَم فكيف تكون الرحلة بالجسد المادي وكل ما يجري فيها من قبيل الرؤَى والكشف؟

وما معنى أن يتحرك الجسد أو ينتقل من موضعه إذا كان في عالم الرمز، ولن يكون للجسد المادي دور ما فيما يجري من أحداث؟

ثلاثة أنواع من الكشوف

ونكرر ما سبق من أن الكشوف تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم تُرى فيه الأشياء والأمور كما هي عليه في العالم المادي دون تبديل.. (مِثْلَ تجلية بيت المقدس للرسول ﷺ وهو جَالس عند الكعبة، يروي رؤيا الإسراء)، وقسم يحتاج جميع ما فيه من وقائع إلى التأويل والتعبير.. (رحلة المعراج إلى السماوات العلا)، وقسم يجمع بين سابقيه.. أي أن بعض أحداثه تحتاج إلى تعبير والبعض الآخر يمثل الأمور كما هي في عالم المادة.. وواقعة

الإسراء من هذا القسم الأخير..

ولإيضاح ذلك نضرب مثلا بما رواه ابن الأثير في تاريخه (أنه بعد الإسراء قعد رسول الله ﷺ في المسجد الحرام وهو مغموم خشية ألا يصدقه الناس، فمر به أبو جهل، فقال له كالمستهزئ: هل استفدت الليلة شيئا؟ فقال ﷺ: نعم، أُسرِيَ بي الليلة إلى بيت المقدس. فقال أبو جهل: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! فقال: نعم. فقال أبو جهل: يا معشر كعب بن لؤي، هلموا؛ فأقبلوا؛ فحدثهم النبي ﷺ. فمن بين مصدق ومكذب ومصفق وواضع يده على رأسه؛ وارتد الناس ممن كان آمن به وصدقه.. وقالوا: فَانْعَت لنا المسجد الأقصى. قال ﷺ: فذهبت أنعت حتى التبس على.. فجيء بالمسجد وإني أنظر إليه فجعلت أنعته. قالوا: فأَخْبِرنا عن عيرنا؟ قال: مررت على عير بني فلان بالروحاء وقد أضلوا بعيرا لهم وهم في طلبها، فأخذت قدحا فيه ماء فشربته، فسلهم عن ذلك. ومررت بعير بني فلان وفلان فرأيت راكبا وقعودا بذي مر، فنفر بكرهما مني، فسقط فلان فانكسرت يده فسلوهما. ومررت بعيركم بالتنعيم يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان، تطلع عليكم من طلوع الشمس.

فخرجوا إلى الثنية فجلسوا ينتظرون طلوع الشمس ليكذبوه، إذ قال قائل: هذه الشمس قد طلعت، فقال آخر: والله هذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورق كما قال. فلم يفلحوا، وقالوا: إن هذا سحر مبين) (الخصائص، سيرة ابن هشام، مسند ابن حنبل).

فهذه الرواية تبين لنا أن ذلك الجزء من أحداث الإسراء من النوع

الجلي الذي لا يحتاج إلى تأويل. ومعنى ذلك أن الإسراء كان كشفا، ولو كان بالجسد ورؤية العين البصرية ما اختلط الأمر على الرسول ﷺ وما اشتبه عندما أخذ يصفه للكفار، مع أنه لم يمض على عودته من هناك سوى مدة وجيزة.

ورُوِيَ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: رُفعتُ إلى سدرة المنتهَى في السماء السابعة، نَبْتُها مثل قلال هجر؛ وورقها مثل آذان الفيلة، يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان. فقلت: يا جبريل؟ ما هذه؟ قال: أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات. (ابن حنبل).

هذا الحديث يدل كغيره على أن المعراج النبوي لم يكن رحله جسدية، والسبب واضح كل الموضوع. فهل غير الله الموقع الجغرافي لأنهار المنطقة، وجعل النيل والفرات ينبعان أو يصبان في أصل شجرة النبق ولا تدري بذلك الشعوب العديدة التي تسكن حولهما؟

أرأيتم أن فهم الحادثة على أنها من أعمال الجسد العنصري يجعل منها مجموعة من الخزعبلات والعياذ بالله. ولو سلمنا بأن هذه الأحداث إنما أمور رمزية مجازية، فما معنى أن يكون الجسد قد انتقل إلى هذا المكان الرملي، وما معقولية هذا الفعل، وما مغزاه؟

مغــزى المعــراج

الواقع أن هذا الكشف الروحاني العظيم يتضمن الإشارة الإعجازية

إلى ما سيقابل الإسلام من الانتشار خارج الجزيرة العربية، وسيبدأ ذلك في المنطقة بين نهري الفرات والنيل. وأن ازدهار الأمة الإسلامية ورفعة شأنها سيكون على يد هذه الشعوب، وأن الخير الخلقي والروحاني سوف يعم أهل المنطقة وهو نابع من ظلال الدوحة الروحانية العظيمة التي ارتقى إليها نبي هذه الأمة العظيم ﷺ ويربطهم بالفلاح الأخروي والازدهار الدنيوي.

إن إدراك أحداث المعراج إدراكا صحيحا يمكننا من تصور عظمة المعراج وحكمته ومغزاه ومراميه القريبة والبعيدة، وكل ذلك يصعب على من يظنون أن المعراج أو الإسراء كان رحلة بالجسد المادي؛ فضلا عما يثيره ذلك من اعتراضات يتعذر الإجابة عليها..

فمثلا يقال لأصحاب نظرية الرحلة الجسدية المادية: هل كان الرسول ﷺ بحاجة إلى رؤية النيل والفرات ليتحقق من آيات ربه الكبرى؟ أليس الأجدر بذلك جماعة من الكفار.. إذ أن إيمان الرسول ﷺ ما كان يشوبه أي نقص أو ضعف.. وما قيمة أن يرى المصطفي ﷺ سدرة المنتهى على صورة تخالف شجر النبق المألوف من حيث ضخامة الثمار وكبر الأوراق؟

مغزى سدرة المنتهى

إن الإجابة على كثير من التساؤلات التي من هذا القبيل لا تتأتى إلا إذا لجأنا إلى التأويل وسلمنا بأن سدرة المنتهى ليست نباتا دنيويا ماديا وإنما هي رمز إلى أمور أخرى روحانية.

ولفظة سدرة مشتقة من (سدر). يقال سدر الشعر أي سدله،

وسدر الثوب أي أرسله طولا، وسدر الرجل أي تحير، والسدر شجر النبق، والسدر البحر.

والمقصود من تجلي رب العزة تبارك وتعالى للمصطفى ﷺ عند سدرة المنتهى أن النبي ﷺ قريب إلى الله تعالى قربا يعجز الإنسان عن تصوره، أو يعني أن الوحي الإلهي للرسول ﷺ بحر لا ساحل له يذخر بالمعارف والحقائق الإلهية، أو أن المعارف والعلوم الإلهية التي كشفت للرسول ﷺ هي كالدوحة العظيمة التي يستظل الإنسان بظلها فتحميه من شدة الحر؛ وينشد سالك الطريق الروحانية في جانبها الراحة ويطرح عن أطراف جسمه التعب والعناء.

كما أن من خصائص أوراق السدرة أنها تُستعمل في تحنيط جثة الميت للمحافظة عليها من الفساد، فالمعنى أن التعاليم التي جاء بها المصطفى ﷺ من وحي الله تعالى لا يتطرق إليها الضياع أو النسيان أو التلاعب في نصوصها لأنها في حفاظة الله تعالى مصونة من التحريف.. ومن ثم فهي بدورها تحفظ المتمسك بها من الفساد الخلقي والانحطاط الروحاني؛ وهى صالحة لذلك على مر العصور.

كما أن (سدرة المنتهى) تتضمن إشارة غيبية إلى صلح الحديبية الذي انتهى به الصراع الشديد بين المصطفى ﷺ والمؤمنين من جانب، وبين قريش من جانب آخر.

إن (سدرة المنتهى) التي ترمز إلى ما تفضل الله تعالى به على المصطفى ﷺ وأمته من تعاليم وإرشادات وحكم وشريعة إنما هي الطريق إلى

الجنة.. جنة الدنيا من فلاح وازدهار وسعادة وارتقاء، وجنة الآخرة التي يعجز اللسان والبيان والتصور عن وصف ما أعده الله تعالى فيها من أسباب النعيم والسعادة. وكلما ازداد المؤمنون استمساكا وعملا بشريعة الله تعالى كلما ازدادت حياتهم جمالا وكمالا ووجدوا من الله تعالى تغيرات وترقيات تجل عن الوصف.

وتقرر الآيتان:

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (النجم:١٨-١٩)

أن الكشف كان كشفا جليا، لم تكل بصيرة المصطفى ﷺ ولم تخطيء ولم تنحرف عن رؤيته. لقد كان كشفا يتضمن آيات ربانية عظيمة، بل هي العظمى بين الآيات.. لأنها تكشف له وللناس جميعا عن حقيقة مُحَمَّد ورسالته؛ ومنزلته عند الله تعالى؛ ومكانة شريعته وكتابه بين الشرائع والكتب، ومستقبل دعوته ومصير أمته. آيات سيشهدها الناس؛ ويراها الأعداء قبل الأتباع.. سيرى الجميع صدق رؤياه. وتبين لهم كماله الخلقي.. كمال تشريعاته.. كمال أتباعه.. فوزه والمعاصي التي تقع من بعض المنتسبين إلى أمته، العلاج الرباني لكل الشرور بإقامة الصلاة التي وإن قل عدد مراتها فإنها مباركة الأثر في ترقية أمة المصطفى ﷺ وصيانتهم من الزلل إن واظبوا عليها، وجعلوا منها صلة مستمرة مع رب العزة تبارك وتعالى..

نعم هذه هي الآيات الكبرى والدلائل العظمى على أن مُحَمَّدًا ﷺ له

حديث وشأن مع الله تعالى.. لا يضاهيه فيهما إنس ولا جان.

تعبير لأحداث أخرى

هكذا الحال أيضا بالنسبة للأحاديث العديدة الخاصة بوصف الإسراء والمعراج علينا أن نفهم حقيقتها ومعانيها على ما يوافق تعبير الرؤيا..

فمثلا قد تعني رؤية بيت حصول الرائي على العز والفلاح؛ وتعني الدابة (أي البراق) أن الراكب سينال مرتبة عالية بعد سفره، ويعني الصعود إلى السماء الأولى أن حياة الرائي تمتد إلى الشيخوخة وأرذل العمر، وبلوغ السماء الثانية يرمز إلى أن الرائي يكون عالما حكيما، وتعني السماء الثالثة العزة والإقبال في الحياة الدنيا. وتعني السماء الرابعة قرب السلطان والحصول على السُلطة؛ وتعني السماء الخامسة الفزع والاضطراب والمخالفة والحرب، وتعني السماء السادسة حصول الرائي على الجاه العريض والسعادة الدائمة؛ ويرمز بلوغ السماء السابعة أن الرائي يبلغ درجة عالية من القدر والمنزلة الرفيعة بحيث لا يدانيه أحد. وعلى العموم فإن فتح أبواب السماء يدل على قبول ا لدعاء والبركة والخير.

وقد تحققت فعلا كل هذه الأمور والأنباء للرسول ﷺ.

أما المشاهد الأخرى فهي لا تحتاج إلى تأويل، إذ أنها تصور بعض الخطايا التي سوف يقع فيها الضعفاء من أمة مُحَمَّد ﷺ، أو التي يقع فيها معارضوه فعلا، أو التي ستقع من أعداء أمته في المستقبل.

وقد عُرضت المشاهد بطريقة رائعة تبين مدى ما تمثله هذه الخطايا من قبح في سلوك الإنسان، ومدى ما ينتظر مرتكبها من عقوبة دنيوية إذ ينفر منهم ذوو الطباع السليمة؛ ومدى ما يستحقونه من عقاب أخروي بسبب استبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير.

الإســــراء رؤيا

وفيما يتعلق بالإسراء.. فقد سماه القرآن المجيد في نفس سورة الإسراء (الرؤيا) حيث قال:

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء:٦١)

وإذا ادعى بعض المفسرين أن (رؤيا) تعني أيضا رؤية العين فان القرآن المجيد استعملها بمعنى الكشف في مواضع عدة:

﴿لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ (يوسف:٦)

﴿وَقَالَ يَآ أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ (يوسف:١٠١)

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَآ إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ (الصافات:١٠٥)

وجاء في لسان العرب وأقرب الموارد: الرؤيا ما رأيته في منامك. وفي مجمع البحار: الرؤيا ما رأيته في المنام.

وقد ذهب بعض الصحابة رضى الله عنهم وعلماء الحديث إلى أن الإسراء كان كشفا ورؤيا فقط لا رؤية عين. وقد رَوَى ابن إسحاق وابن جرير عن معاوية إذ سُئِلَ عن مسرَى رسول الله ﷺ قال: "كانت رؤيا من

الله صادقة" (المنثور ج ٤).

ورَوَى ابن إسحاق قال: حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة ﵂ كانت تقول: "ما فُقد جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرَى بروحه" (التفسير الكبير).

أما كون هذه الرؤيا فتنة فقال ابن إسحاق: قال الحسن: وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن إسلامه لذلك - أي الإسراء: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (سيرة ابن هشام ج ١).

ويقول البعض: لو كان الإسراء روحيا لما اعترض كفار قريش الذين حكى لهم الرسول ﷺ؟ ولكن فات هؤلاء الظروفُ التي حكى فيها المصطفى ﷺ وطبيعةُ الكشف. إن ما رآه المصطفى ﷺ كما ذكرنا من قبل ليس من قبيل الرؤيا المنامية التي يراها النائم.. وما كان له ليحكي ما يراه في منامه، وإنما ما رآه النبي ﷺ كان كشفا رآه وهو كامل الحواس.. لأنه وحي إلهي.. فهو أقوى في حقيقته مما يقع لغيره من الناس. كل ما في الأمر أنه لا تصحبه حركة مادية؛ وأن مشاهده رمزية تستلزم التعبير والتأويل.

ثم إن أم هاني ﵂.. وهي المرأة المؤمنة الحصيفة.. فهمت ما قاله الرسول ﷺ؛ ولم تجد فيه ما يدهشها. لكنها كانت تعرف عقلية كفار مكة وتلمُّسهم الأسباب للتهكم والسخرية، لذلك لما عزم على الخروج أمسكت بردائه، وقالت له تحذره من أن يحكي لهم رؤياه، لأنهم لن يدركوا مغزَى ما رأى، وسيتخذونه مادة للاستهزاء: "يا نبي الله! لا تحدث الناس - أي

الكفار المعارضين - بهذا الحديث فيكذبوك ويؤذوك قال: والله لأحدثنهم".

وبينما المصطفى ﷺ عند الكعبة.. يمر به عدو الله أبو جهل فيسأله في سخرية هل من نبأ جديد؟

والآن لنتساءل فيما بيننا.. ما هي الأنباء التي كان يرويها الرسول ﷺ للناس ويتوقع سماعه أبو جهل؟! كانت أنباء الأمم السابقة وما حل بهم من عقاب إذا خالفوا أنبياءهم، وأنباء مستقبل الإسلام الباهر وما يحيق بأعدائه من عقاب.

وها هو الرسول ﷺ يروي لهذا الساخر المستهزئ ما أراه له الله تعالى.. بلهجة الواثق مما رأى.. المطمئِن لوعد الله تعالى.. يروي بأسلوب من يحكي الأمر الواقع.. وحي الله تعالى: فقال ﷺ: نعم، أسريَ بي الليلة.. ولم يدعه عدو الله يكمل حديثه؛ بل أسرع يدعو الناس ليكونوا شهودا معه ويشتركوا معه في السخرية والتكذيب من أصدق البشر ﷺ ولكنه لم يكن حلما، ولو قال ذلك - حاشا له أن يتهرب من الحق - لزادت سخريتهم وتمادوا في تهكمهم. إنه ﷺ يحكي ما رآه حقيقة وصدقا.. وهم لا يدركون تجربة الرؤيا التي يريها الله لعباده.. ويكشف لهم فيها كثيرا من عجائب آياته.

فلا بد وأن يروي لهم الكشف الذي رآه.. وليكذبه من يكذب.. فهذا دأبهم يكذبونه منذ أن قال لهم إنه رسول أمين من رب العالمين.. وليرتد ذوو الإيمان الضعيف الذين جمعوا بين الوهن وسوء الإدراك. أما

المؤمنون.. من أمثال الصديق ومن على شاكلته وما أقلهم.. فقد أدركوا وصدقوا واطمأنوا إلى ما تحمله رؤيا رسولهم الكريم من خير عظيم.. تحقق بعد شهور قليلة.. وما انفك يتحقق حتى يومنا هذا.

نعم يا رسول الله، ما كان لك أن تخاف دهشة أبي جهل وأضرابه، فتجعل من الكشف الصادق والرؤيا الحقة حلما يراه النائمون منهم.. ولكنك رويت.. وكان حقا أنك رأيت.. وكان حقا تأويل ما رأيت.. ولقد أسرعت السماء لتكمل لك صدق رؤياك.. وتكرر لك مشهدا لم تركز عليه انتباهك.. وأنت منهمك في صلاتك ولقاء إخوانك.. فمن ينظر إلى الجدران ويذكرها وأمامه هذه المتعة الروحية العظمى..

نعم أسرعت السماء لتكشف لك ما سبق أن كشفته لك منذ ساعات قلائل.. ولتنبه أولئك الذين يظنون أن الرسول ﷺ قد ذهب بجسمه ورأى بعين بدنه بيت المقدس.. ثم تختلط عليه الصور المادية بعد فترة وجيزة لأمر بعيد الاحتمال.

هذا، وإنّ طَلَبَ المعارضين من المصطفى ﷺ أن يصف لهم بيت المقدس لأمر يدل على الغباء.. لأن الرحلة تمت في الليل.. ولا يتوقع من زائر الليل لفترة قصيرة أن يلاحظ مثل هذه الأمور.. فكان وصفه لها دليلاً آخر على أن ما رآه كان في حالة الكشف الصادق.. سواء فيما رآه النبي ﷺ ليلا؛ أو رآه أثناء حكايته لأحداث الرحلة.

كما أن وصف رسول الله ﷺ لِمَا شاهده من القافلة والعير ليس من الأمور التي يراها الإنسان ليلا وهو يمضى بسرعة البرق.. ولكن هذه

التفاصيل الدقيقة تدل على أنه رآها فعلا في عالم الكشف.. وأن ما سمعه أصحاب البعير الضال، أو أصحاب الماء المشروب، هو أيضا على سبيل الكشف وإن لم يدركوه.

وجدير بالملاحظة أن جبريل لم يمنع الرسول ﷺ من شرب مائهم مع أنه أخبره أنه لو شرب الماء لغرق وغرقت أمته، كما أن المصطفى ﷺ ما كان ليشرب من ماء أو يكشف إناء دون أن يستأذن من أصحابه.

ولقد جاء قدرٌ من كشف الإسراء من القسم الذي تُرى فيه الأمور كما هي في دنيا الواقع.. وهو ما رواه المصطفى ﷺ من مروره بعير بأحد الوديان ودلهم على جمل ضل، ومثل هذا القدر لا يحتاج إلى تأويل، وقد جعله الله تعالى برهانا فوريا على صدق رؤيا المصطفى ﷺ.

أنباء في هذا الكشف

أما المقصد الرئيسي من هذا الكشف والغرض منه فأمر عظيم. فقد أراد الله تعالى أن يخبر الرسول ﷺ ويريه المخرج القريب من تكذيب قريش ومعارضتها وتعذيبها لأتباعه من المؤمنين.. وذلك بهجرته ﷺ إلى المدينة المنورة؛ وما يتعلق بهذا الانتقال من ظفر وانتصار للإسلام.

والمراد من رؤية بيت المقدس هو المسجد النبوي الشريف الذي بناه في المدينة المنورة.. التي بارك الله فيها وما حولها، وأعطاها من المجد والسلطان والعلو في الدنيا والآخرة أكثر من بيت المقدس، ولقد رفع مسجده فيها على كل مساجد الأرض غير المسجد الحرام.

أما لقاؤه الأنبياء وصلاتهم جميعا خلفه فتعبيره أن شريعته ودينه ينسخان كل ما سبق من شرائع الأنبياء؛ وأنه سيكون رسولا وهاديا ومبشرا ونذيرا لكل أمم الدنيا؛ وفيه إشارة إلى أن دعوته تنتشر في أطراف الأرض من أقصاها؛ وأن هجرته إلى مهجره ستكون سببا ومفتاحا لذلك. وفيه النبأ بأنه ﷺ سيملك بيت المقدس وسيكون سيد ملوكها وعلمائها وأهلها أجمعين..

ولو اطلعنا على ما كتبه صاحب "تعطير الأنام" لوجدنا أن تأويل كشف الإسراء يتفق وما ذكرناه، فقد ورد فيه: "تدل رؤية كل مسجد على جهته والتوجه إليها كالمسجد الأقصى والمسجد الحرام ومسجد دمشق ومسجد مصر وما شاكل ذلك. وربما دلت على علماء جهاتهم أو ملوكهم أو نواب ملوكهم."

أنباء تحققت بالهجرة

ومن المناسب أن نطبق هذا التعبير في واقعة الهجرة ونتائجها على الآيات والواقعات:

لقد بدأ الله تعالى قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾. وقوله ﴿سُبْحَانَ﴾ يُبيّن أن الإسراء ليس إلا رؤيا تتضمن نبأ عن أمر يكون في المستقبل ويظهر سبوحية الله عز وجل. وطبعا لا تثبت سبوحية الله بمجرد إسراء الرسول ﷺ إلى بيت المقدس، ولكنها تتجلى في الهجرة بصورة أعلى وأجلى.. إذ يتم هذا النبأ بواقعة الهجرة وكونها مدعاة لإتمام الأنباء القرآنية

الأخرى، من جهاد وقتال وفوز ونجاح للإسلام، ودخول الناس في دين الله، وقيام حكومة ودولة إسلامية، وتأسيس مدنية دينية، واكتساح للشرك من جزيرة العرب.. فحصول كل هذه الأمور يدل على كون الله تعالى (سبوحا). وليس ثمة من عاقل يداخله شك في أن أساس الفتوحات الإسلامية كلها هو الهجرة النبوية الكريمة.

أننا لو أمعنا النظر فيما جرَى ليلة الهجرة لتبين لنا أن الله حقا سبوح منزه من كل نقص وعيب؛ ينصر عباده المخلصين. فرغم ما دبره المشركون لقتله ﷺ من حصار لبيته؛ فلقد نبه الله تعالى رسوله إلى الخطر المحدق به، وسهل له الطريق دون معرفة أعدائه، وأعمى عيونهم عنه، بل وحمَى عليًّا رضي الله عنه إذ عرَّض نفسه لخطر القتل لأيام في فراش النبي ﷺ من أجل محبتة له. ولقد غشَّى الله أبصارهم عندما وصلوا إلى الغار، فلم يتمكنوا من رؤية الرسول ﷺ وصاحبه، مع أنهما كانا على قيد شبر منهم. أليست هذه من آيات الله الكبرى؟ أليس الله الذي أجرَى ذلك كله سبوحا؟ أليس لسان حالنا دائما يقول: سبحان الله رب العالمين!

أما قوله (ليلا) فمن المعروف أن المصطفى هاجر ليلا من مكة إلى المدينة، لقد كان جبريل مع النبي ﷺ في الإسراء، وكذلك كان أبو بكر رضي الله عنه مع المصطفى في هجرته، وهذا إشارة إلى رفعة شأن أبي بكر عند الله تعالى إذ أقامه مقام جبريل عليه السلام.. كصاحب ومعين للرسول ﷺ.

وما يجب ذكره أن موسى عليه السلام في رؤياه تلقى وحيا يشبه ما قاله الله تعالى عن إسراء الرسول ﷺ فقد قيل:

﴿فَلَمَا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل:٩)

وقيل في الإسراء:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾

فكما بارك الله لموسى في الأرض التي ستكون فيها شريعته، بارك لمحمد ﷺ في الأرض التي تقوم فيها شريعته.. وكلا الأمرين مصداق لسبوحية الله تعالى.

فبيت المقدس كان مركزا وسببا لتأسيس حكومة إسرائيل وقيام الشريعة الإسرائيلية، كذلك كانت المدينة المنورة والمسجد النبوي مركز الحكومة المحمدية ومهبط الشريعة الإسلامية التي أقامت دولة بني إسماعيل في العالم؛ لذلك نعتها الله.. أي المدينة المنورة.. بالمسجد الأقصى من حيث القدسية والبركة.

ولقد تم النبأ الإلهي ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ في حق المسجد النبوي والمدينة المنورة، إذ أن الله باركها. فقد بارك المدينة المنورة وما حولها، وجعلها حرما بفضل دعاء نبيها ﷺ إذ قال: (إن إبراهيم حرَّم مكة ودعا لأهلها، وإني حرَّمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثل ما دعا إبراهيم لمكة). صحيح مسلم.

ثم قال: "اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا لمكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدنا"" (صحيح البخاري). وقال: "اللهم اجعل بالمدينة

ضعفي ما جعلت بمكة من البركة." (صحيح البخاري). وقال عن مسجده: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى." (صحيح البخاري). وقال أيضا: "أنا آخر الأنبياء ومسجدي آخر المساجد." أي أفضلها. (صحيح البخاري). وهكذا بارك الله في المسجد النبوي ومدينته كما بارك بيت المقدس في زمن بني إسرائيل، بل إنه بارك في المدينة المنورة عاصمة للإمبراطورية الإسلامية فكان الإسلام دائما آخذا في الرقي والانتشار.

ولكن لما غير الخلفاء المسلمون عاصمة الإسلام توقف رقي الإسلام وبدأ في الضعف والاختلال، وظهرت الاختلافات الذاتية والحروب الداخلية ولم تنته حتى يومنا هذا.

ومن مظاهر البركة التي نزلت بالمدينة بهجرة المصطفى ﷺ إليها ما رَوته السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: "كان وباء الحمَّى بالمدينة قبل قدوم النبي ﷺ - قيل في كتب اللغة أن المدينة كانت تسمى يثرب ومعناه البكاء والصراخ لكثرة بكاء أهلها على موتاهم من مرض الحمى - فلما قدم ﷺ إليها زال وباء الحمى بدعائه فسماها المدينة."

وأما قوله ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ فكما سبق أن أشرنا من كثرة الآيات والمعجزات الباهرات والغزوات القاهرة للشرك وأهله التي وقعت بعد الهجرة.. وظهور الإسلام على أعدائه وإعلاء كلمته في جزيرة العرب وغيرها.. أكبر آية من آيات ربه ﷺ ودونها الآيات الأخرى.

ولقد كشف الله كل هذه الآيات باختصار وجمال على طريق المثال

في كشف الإسراء.. ولكنه ذكر أن وقوعها في عالم الحقيقة والواقع سوف يتم في المستقبل بالتفصيل والوضوح الذي رآه في الكشف، وسيكون ذلك بطريقة تدفع الدنيا إلى الإقرار بأن الله تعالى (سبوح).. وتحقق له ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ ولن يعمَى عن هذه الآيات إلا المعاند أو المتعصب.

والقسم الأخير من آية الإسراء ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أيضا يؤيد رأينا لأن مشاهدة بيت المقدس وحده في اليقظة أو في المنام أو في الكشف، لا يدل على كونه تعالى سميعا بصيرا، وهذا يوجب الاعتراض على أن القرآن يأتي بألفاظ في غير محلها.. ولكن هجرة الرسول ﷺ لهي الدليل الأكبر على أنه تعالى هو السميع البصير.

لقد سمع دعاء النبي ﷺ وتضرعاته هو وأصحابه لخلاصهم من كيد الكفار وظلمهم، ولإعلاء كلمة الله وانتشار الإسلام.. ففتح لذلك باب الهجرة، وجعلها أساسا وأكبر ذريعة لنشر رسالة التوحيد والحضارة الإسلامية، وسمع أيضا دعاء أبيه إبراهيم ﷺ من قبل إذ قال:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (البقرة:١٢٩)

إن الهجرة هي التي يسرت للرسول ﷺ أن يتلو على أتباعه آيات الله تعالى، ويزكي المؤمنين، ويعلمهم الكتاب والحكمة بحرية تامة. وهو - جل وعلا - بصير لأنه حمَى الإسلام والنبي ﷺ والمسلمين.. في المدينة وفي كل المواقع.. وحفظهم من مكائد الكفار في كل موطن، وهو حافظ ومازال حافظا للإسلام والقرآن. وكل هذا هو الدليل على أنه بصير يحيط بصره

بكل شيء. فليعلم الذين لا يؤمنون بالحق حتى وبعد ظهور الآيات الكبرى، وليعلم المنافقون والضعفاء في الإيمان بأنه سوف يجازيهم حسب آثامهم ويحاسبهم حسابا شديدا.

والمسجد الأقصَى يشير أيضا إلى بيت المقدس نفسها، وتأويل ذهاب المصطفى ﷺ إلى هناك يحمل نبأ غيبيا بأنه ﷺ سيملك تلك البلاد، وسوف تكون من مراكز الإسلام الهامة.

ولقد تحقق هذا النبأ بعد سنوات معدودة.. وعلى يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل الإسلام بيت المقدس ومكث في أيديهم ثلاثة عشر قرنا. ورغم أنها ذهبت اليوم إلى أيدي النصارى واليهود.. إلا أن ذلك قد تم حسب نبأ أنبأه المصطفى ﷺ.. ولسوف تعود هذه البلاد المقدسة إلى أيدي المسلمين، إن عاجلا أو آجلا حسب نبوءته ﷺ.

وإذا أخذنا بتعبير رؤية المسجد، وهو علماء البلاد التي بها المسجد، فقد تحقق ذلك أيضا لأن بيت المقدس كانت مركزا عظيما لعلماء المسلمين ومحققيه. خرج منها الكثيرون من مشاهير الإسلام ومحدثيه.

هذا وإن إسراء الرسول ﷺ إلى المسجد الأقصى يشير أيضا إلى أنه عندما تضعف شوكة الإسلام، وتغطي الأرض ظلمة الهجران لكتاب الله ودينه وشرعه، وعندما يلقي المسلمون بأنفسهم تحت سيطرة الغرب الصليبي.. تسري بركات المصطفى ﷺ إلى رجل من أمته.. هناك في أقصى بلاد الإسلام، ليكون مسجده مركزا لبركات العلم المحمدي، ومنارة لإشاعة الإسلام الصحيح، فينير العالم بفيوض الإسلام والقرآن، ليفيق المسلمون

من غفلتهم ويرجعوا إلى الدين الصحيح، ويحوزوا نفس البركات والأنوار والمجد والحياة التي أعطيت لأتباع أنبياء بني إسرائيل؛ والتي أعطيت للمهاجرين والأنصار. وهناك يتحقق قول الله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة:٣)

وسوف تبدو عزة الله تعالى وحكمته في إحياء الإسلام وتجديده ببركة محمد ﷺ في بعثته الثانية وعلى يد الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام.

(اقتباسا من تفسير سيدنا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه، الخليفة الثاني لسيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام)